المحاضرة الثانية

أولا - علاقة الأدب والنقد بالتحليل النفسي: مقاربة نقدية

يرى عدد من النقّاد أنّ الإبداع الأدبي سبق علم النفس في استكشاف أعماق النفس الإنسانية والكشف عن عوالمها المكبوتة؛ إذ إنّ الأجناس الأدبية المختلفة، كالأُسطورة والرواية والمسرح والقصة، شكّلت فضاءات تعبيرية أسهمت في مقاربة التجربة الإنسانية في أبعادها النفسية العميقة. لهذا عُدّ" الأدب أصلح الميادين الفكرية لإظهار العلاقة الوثيقة بينه وبين علم النفس ؛لأنه نتاج اللاشعور قبل أن يكون حصيلة الوعي والإدراك".

وبناءً على ذلك، يُنظر إلى الإبداع الفني على أنّه حصيلة التجارب الإنسانية المتراكمة التي يتجذّر مصدرها في اللاشعور؛ إذ إنّ "العقل الباطن ليس خاملا عاطلا ؛ ولكنه فعال يؤثر في حياة الإنسان العقلية على غير شعور منه "، وقد أكّد سيغموند فرويد هذا التصوّر في كتاباته، حين اعتبر اللاشعور أساس الحياة النفسية، لاحتوائه على الدوافع المكبوتة والرغبات المقموعة منذ مرحلة الطفولة، وهي عناصر تتّسم بالحركية والانفعال والاضطراب، وتسعى إلى الظهور في مستوى الشعور عبر تمظهرات رمزية متعدّدة، تتجلّى في الأحلام أو في أشكال الإبداع الفني.

ومن هنا افتتن علماء التحليل النفسي بالعملين الأدبي والفني ؛لما يركزانه من اهتمام على شخصية المبدع وبنيته النفسية ،فاتخذوهما وسيلة بحثية للكشف عن حقيقة النص واستجلاء نفسية المبدع . ومهما يكن من أمر هذه الآراء، فإنه ثمّة علاقة وطيدة بين الأدب وعلم النفس؛ إذ إنهما "يشتغلان بالطريقة نفسها، فهما يقرآن الإنسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي، ويسعيان إلى بلوغ حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث". ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل يسعى التحليل النفسي إلى "فهم أسرار الأدب والفن من خلال نظرياته، مرتكزا على استنطاق منطقة اللاشعور (العقل الباطن) التي ينظر إليها بوصفها مركزا لتخزين تجارب الحياة النفسية، وغالبا ما تكون تجارب مؤلمة وقاسية. فهي في مجملها رغبات مكبوتة لا تستدعي منطقة الشعور بالطرائق العادية ،وإنما تظهر عبر آليات غير مباشرة، كالتنويم والأحلام، كما تتجسد في كثير من الأحيان في الأعمال الإبداعية لدى الفنانين ، وبفضل هذا التفريع الرمزي تتحقق عملية التخفيف أو الحلّ للعقد النفسية.

أما النقد الأدبي فقد ارتبط في نشأته الأولى ارتباطًا وثيقًا بالبعد النفسي؛ إذ كان في جوهره نقدًا انطباعيًا يقوم على الذوق الشخصي والاستجابة الوجدانية للنص الأدبي. فقد كان كلّ ناقد يُفصح في ممارسته النقدية عمّا ينسجم مع ميوله النفسية وتجاربه الذاتية، دون الالتزام بمنهجية علمية صارمة أو أدوات إجرائية محدّدة. وقد أسهم هذا الطابع الانطباعي في تشكّل المنهج النقدي العربي، الذي ظلّ حافلًا بجملة من القيم المتداخلة، استمدّ كثيرًا منها من المرجعيات الثقافية والعقدية التي أقرّتها العقيدة الإسلامية، كالنظر إلى الأدب بوصفه وسيلة للتهذيب الأخلاقي والتقويم السلوكي. ومع ذلك، فإنّ هذا الارتباط بالذوق والنفس لا يخلو من جوانب إيجابية وسلبية؛ فمن إيجابياته أنّه أتاح للناقد حرية التفاعل مع النص، وأسهم في إبراز البعد الإنساني والوجداني للأدب، أمّا سلبياته فتتمثّل في خضوع الأحكام النقدية للذاتية والانفعال، وافتقارها في كثير من الأحيان إلى الدقّة والموضوعية والمنهج العلمي. ومن هنا برزت الحاجة إلى تطوير النقد الأدبي والانتقال به من الانطباعية الذاتية إلى المناهج النقدية الحديثة التي تستثمر المعطيات النفسية ضمن إطار علمي ومنهجي أكثر ضبطًا.